

الحسن مع الإمام علي

كان الحسن يدعو جده الرسول صلى الله عليه وسلم (يا أباي) ويقول لأبيه الإمام علي يا أبا الحسين - وكان الإمام ينصح الحسن إذا حضر ويكتب له إذا غاب فيحقر له الدنيا ويعظم له الآخرة ، ويتعهد في نفسه العقيدة دون أن ينسى مرافقة نمو مداركه وتقوية ملكة التبصر فيه ليجعله صمداً منيعاً إلى أن أخذت معاني السمو تكتمل في الغلام . وتلاقت في نفسه أنواع الإرشادات فاختمرت وقذفت به نحو التضج شوطاً بعيداً ، فصار له الرأي الشخصي والقوة الذاتية .

وأصبح^(١) يدعو والده إلى القعود عن الحرب أو يحفره إذا ما قعد عنها ، وهو في هذا وذاك فذله اجتهاد صائب عليه برهان ودليل . فمن ذلك أنه رافق أباه إلى الجمل ، وإذ هما في الربرة اعتملت في نفسه فكر مختلفة فصار بها ووازنها ثم استتج وقال لأبيه في أثناء احتدام الجدل : (ستقتل بمضيعة لا ناصر لك) ، فأجابه والده بشيء من الأناسة والرفق : (إنك لا تزال نحن عليّ حين الجارية - وما الذي رأيته واستصوبته ؟) فيندفع الحسن إلى تفنيد رأى تبنائه ويقول : (لقد رأيت لك يوم أحبط بعثان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم رأيت لك يوم قتله ألا تباع

(١) الحسن بن علي (كامل سليمان)

حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت على ، ورأيت لك حين خرجت السيدة عائشة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصططحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك فلم تقتنع مني بذلك كله .

وضاق صدر الوالد وقال لابنه : أي بُني - أما قولك - لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به - وأما قولك لا تباع حتى يباع أهل الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فباع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم توفي وباع الناس عمر فبايعته ، وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني ، فجعلني سهماً من ستة أسهم ، وباع الناس عثمان فبايعته - ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وباعوني طائعين غير مكرهين . وأما قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير فكيف لي بما قد لزمني .

وقد قال الحسن لأبيه يوم النهروان : يا أمير المؤمنين - أكان رسول الله تقدم إليك في أمر هؤلاء بشيء ؟ فأجابه : إن رسول الله أمرني بكل حق ، ومن الحق أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين .

وكان الإمام يوصي الإمام الحسن دائماً ويطلعه على ما طوى صدره من العلم الثرار فمن ذلك قوله له : (يا بني احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرک ما عملت معهن : إن أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ، وأوحش

الوحشة العجيب ، وأكرم الحسب حسن الخلق . يا بني إياك ومصادقة
الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد
عنك أحوج ما تكون إليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ،
وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عنك
القريب .

ومن هذا نرى أن الإمام رضى الله عنه دائم السهر على ولده يشرح له
بفصاحته المعهودة ويزوده من معارفه .

وفي واقعة الجمل كان الإمام الحسن في ميمنة الجيش وأخوه في الميسرة
والراية بيد الأخ الثالث محمد بن الحنفية وكان الوالد يقذف بمحمد ويكف
الحسن والحسين - فقبل لمحمد : (لم يغرر بك أبوك في الحرب ولا يغرر
بأخويك ؟ فأجاب : إنهما عيناؤه وأنا يمينه فهو يدفع عن عينيه يمينه . .)
فالحسن عند أبيه مساعد قوى والإمام على يزحف وأولاده من حوله
يشدون أزره ويسندون ظهره - وقال الإمام لابنه الحسن في هذه الواقعة :
(يا بني - ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً) ويرد الإمام الحسن :
(يا أبت لقد كنت أكره هذا) .

وبعث الإمام على رضى الله عنه بعثه إلى العراق وعلى رأسها الإمام
الحسن وكان يحمل كتاب والده الذى رسم فيه قصة مقتل عثمان ودور كل
من دعاة الانتقام فيه ونقل به إلى أذهانهم صورة حقيقية لأمر الخليفة
المقتول جعلت السامع كالماعين فهدأت عند تلاوته خواطرهم . وجاء في هذا

الكتاب : (إني خرجت مخرجي هذا إما ظالماً أو مظلوماً وإما باغياً وإما مبيعاً على فأنشده الله رجلاً بلغه كتابي هذا إلا نفر إلى فإن كنت مظلوماً أعانني وإن كنت ظالماً استعيني . . .)

ولما وصلت البعثة وكان من أعضائها عبد الله بن عباس ، وعمار بن ياسر ، وفيس بن سعد ، خرج إليهم أبو موسى - فقال له الحسن : (لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء) . فيجيب أبو موسى : (صدقت بأبي أنت وأمي ، ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب ، وقد جعلنا الله إخواناً وحرم علينا دماءنا وأموالنا . . .)

وقد رد عليه عمار متجهاً إلى جمع غفير من الناس وقال : (أيها الناس إنما قال له وحده أنت فيها قاعداً خيراً منك قائماً) . ثم قام الحسن وقال : (أيها الناس إنا جئنا ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين وأعدل من تعدلون ، وأفضل من تفضلون وأوفى من تبايعون ، من لم يعبه القرآن ولم تجهله السنة ، ولم تقعد به السابقة إلى من قرّبه الله تعالى ورسوله قرابتين ، قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل ماثرة ، إلى كل من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون ، وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم ترد له شهادة

ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ويدعوكم إلى الحق ويأمركم بالمسير إليه ، لتأزروه وتنصروه على قوم نكنوا راية بيعته ، وقتلوا أهل الصلاح من أصحابه ، ومثلوا بعماله ، واتهبوا بيت ما له ، فأشخصوا إليه رحمكم الله فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر واحضروا بما يحضره الصالحون) .

وفي مناسبة ثانية قام في الناس يدعوهم إلى نصرة الحق فقال : (أيها الناس إنه قد كان من مسير أمير المؤمنين ما قد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنفرين لأنكم جبهة الأنصار ورؤوس العرب ، وإيم الله لو لم ينصره أحد منكم لرجوت أن يكون في من أقبل معه من المهاجرين والأنصار كفاية ، فأجيئوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لبئن يله أولو النبی أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة ، فأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتم . وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً فاذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفر ، فإن كنت مظلوماً أعانني ، وإن كنت ظالماً أخذ مني . . . والله إن طلحة والزبير لأول من بايعني وأول من غدر . . . فهل استأثرت أو بدلت حكماً . . . ؟) .

وفي مناسبة أخرى قال : (إن مما عظم الله عليكم من حقه ، وأسغ عليكم من نعمه ، مالا يحصى ذكره ولا يؤدي شكره ، ولا يبلغه قول ولا صفة .

ونحن إنما غضبنا الله ولكم ، ولم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم . واستحكمت عقدتهم فاحتشدوا في قتال عدوكم وجنوده ولا تحاذلوا . فإن الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الإقدام على الأمانة نخوة وعصمة .

ولم يمتنع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة وكفاهم حوائج الدلة ، وهداهم إلى معالم الملة . . .) .

على أن بعض المفرضين يتوهمون أن الحسن شاب هين إلى حد اللين لا يستجيب لظروف والده ، وإذا تراءت إيجابية فألى قسط بسيط يشبه السلبية ، والحقيقة أن تصرفاته قد بلغت خير ما يرجى فبرهن على طول باع ، إذ رافق القضية وراعى تطورها بعقل رصين حصيف .

فها هو ذا^(١) في النخيلة - قبل صفين بأيام - يشهد تبادل التحارير بين أبيه وخصمه ويراقب المتألمين ويتعرف إلى المخلصين ويماشي الأحداث يبقظ لئلا يسرب إليه قليل أو كثير عن القادة أو عن حالة أى إنسان لأن المصطرع هائل والأفق مربد ينذر بيوم يحمل ويلاً وصغاراً ، وإنه لما استشم ريح التكوص من أبي موسى - قبل ذلك بأيام - وإذا تحقق ذلك بنفسه قال له بكبرياء : (اعتزلنا لا أم لك ودع منبرنا) . . ثم نحاه .

وكان الحسن يلجئ أباه إلى عزل الولاة وتعيينهم . بإشارته الرشيدة ، بل كان قبلة أنظار الناس يقصدونه فيجبرهم عند والده ، ويعتذرون له فيقبل أعذارهم ، ويحاول لم شمل أصحاب أبيه . فمن ذلك أن الإمام عاتب سليمان ابن صرد الخزاعي وابنه على تخلفه عنه في وقعة الجمل فحمل هذا في نفسه شيئاً من الغيظ فاستلم الحسن إنهاء القضية لما قال له سليمان : (ألا أعجبك من أمر أمير المؤمنين ما لقيت من التوبيخ والتبكيك) فأجابه الحسن :

(١) الحسن بن علي [للأستاذ كامل سليمان]

(إنما نعاتب من نرجو مودته ونُصحه) .

وقد كان الحسن يدفع بأبيه إلى السيوف دون أن ينسى موعظة نفسه ودون أن يدرأ عنها الخطر به ؛ إذ كان مع أخيه يبذلان النفس رخيصةً بين يدي المبدأ عندما رأيا المكروه يُحْدَقُ بأبيهما ، فراحا يستأذنانا ويرتميان في المهالك غضباً لله وذمّاً عن الإمام وحزبه ، إلى أن ألجأه أن يقول لأصحابه : (املكوا عني هذين الغلامين فإنني أنفُسُ بهما عن القتل ، والله إني لسخى بنفسي عن الدنيا طيب النفس بالموت ، ولقد همت بالإقدام على القوم فنظرت إلى هذين قد ابتدراني - يعني الحسن والحسين - ونظرت إلى هذين قد استقدماي - يعني عبد الله بن جعفر ومحمد بن علي - فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل رسول الله من هذه الأمة ، وكرهت ذا وأشفت على هذين أن يهلكا) .

وإذ اجتاز أبوه الستين من عمره أوصاه وصية تعطينا صورة جليلة عن مكان الحسن من قلب أبيه فقال :

من الوالد الثاني إلى المولود المؤمل .

إن ما تبينت من إدبار الدنيا ما يزغني عن ذكر سوى ، غير أني وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني ، فعناني من أمرك ما يعينني من أمر نفسي .

أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله ، وأي سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ، أحى قلبك

بالمواعظة وقوة اليقين ، ونوره بالحكمة ، وأعرض عليه أخبار الماضين .
 وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر
 في ما فعلوا وعما انقلبوا وأين حلوا ونزلوا ، ولا تبع آخرتك بدنيك وأمر بالمعروف
 تكن من أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وجاهد في الله حق جهاده .
 ويقول الإمام على لابنه الحسن : رأيت أن يكون ذلك وأنت في مقتبل
 العمر - ذو نية سليمة ونفس صافية - وأن أبدأك بتعليم كتاب الله - واعلم
 يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتكَ رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه
 ولعرفت أفعاله وصفاته .

ويقول الإمام : يا بني اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ،
 فأحب لغيرك ما تحب لنفسك واکره ما تكره لها . ولا تظلم كما لا تحب
 أن تُظلم وأحسن كما تحب أن يحسن إليك . واستقبح ما تستقبحه من
 غيرك وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . إن أمامك طريقاً ذا
 مسافة بعيدة ومشقة شديدة ، المخفّ فيها أحسن حالا من المثلث والبطيء عليها
 أقبح حالا عن المسرع وإن مهبطك بها لا محالة إما على جنة وإما على نار .
 واستمر الإمام على في نصيحته لابنه فلم يترك قاعدة فيها إصلاح الفرد
 أو إصلاح المجموع إلا تبسط فيها لابنه ليجعل منه رجلاً مطبوعاً على الخير
 الخالص ، يفكر بالآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا .

واستفاد الإمام الحسن من هذه الوصية وأصبحت دستوراً له دستور حق
 واسع الشمول واضح المعالم .